حملة أمير الأمراء عبدالرحمن النجومي إلى مصر

(أسبابها ونتائجها)

د. عبدالفتاح محمد الكباشي*

مستخلص:

يتحدث هذا البحث عن حملة القائد عبدالرحمن النجومي إلى مصر منذ أن كانت فكرة في عهد الإمام المهدي وإلى أن تم تنفيذها في عهد الخليفة عبدالله التعايشي.

تعرف الباحث إلى تكوين هذه الحملة والظروف القاسية التي واجهتها ذاكراً كل هذه الصعاب وكيف واجهها القائد عبدالرحمن النجومي وأفراد جيشه الأبطال.

وكما ورد في ثنايا البحث ما قام به الخليفة من جهد لتذليل هذه الصعاب. كما نفى الباحث الاتهامات التي ألصقت بالخليفة عبدالله وأنه أرسل هذا الجيش وفي هذه الظروف الصعبة للقضاء على قوة الأشراف مستعرضاً مجموعة من الأدلة والبراهين وأُختتم البحث بمعركة توشكي وما ترتب عليها من نتائج.

Abstract

This research is concerned about the campaign of Mahadia revolution great leader and the prominent and the pioneer prince (Ameer) Abdelrahman Anijoomi To Egypt. The idea was derived from the Mahadi ruling time on the era of. The calipha Abdallha Altiaashi Who sent The campaign.

The researcher elaborated and explained the foundation of campaign, the hard and the harsh conditions which faced the leader and his brave and knight soldiers.

The calipha him self did his best to solve the difficulties, obstacles of the campaign, but The researcher denied The accusations against The caliph in order To get rid of The famous brave princes of Alashraf by sending The campaign in difficult conditions to be killed or captured by the Egyptian army.

The researcher concluded his sequences proving, evidences, and documents, the research of the Tushki battle results.

---

* أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة أم درمان الإسلامية.

كانت سياسة الإمام المهدي ترمي إلى إنشاء دولة إسلامية كبرى تتخذ الشريعة الإسلامية منهاجاً للحكم. وهذه الدولة بلا شك تبدأ بدول الجوار للسودان. ولقد لقب المهدي نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم الخلفاء الذين اختارهم بمثابة خلفاء للخلفاء الراشدين الأربعة. وقد قام المهدي بتوزيع راياته للجهاد على هؤلاء الخلفاء، فكان من نصيب الخليفة الرابع محمد شريف بن حامد الراية الحمراء والتي ضمت القاطنين على أرض الجزيرة وعلى ضفاف النيل حتى المديرية الشمالية[1].

ومن هنا يتضح لنا أن هذه الراية أوكل لها المهدي أمر الجهاد في مصر، وذكر أيضاً أن الإمام المهدي عندما عين خلفاءه ترك كرسي الخليفة عثمان ابن عفان (رضي الله عنه) إلى السنوسي في ليبيا وأرسل إليه قائلاً: (فإذا بلغك جوابي هذا إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر ونواحيها إن لم يسلموا وإما أن تهاجر إلينا والسلام)[2] وهذا يوضح مدى اهتمام المهدي بمصر ذات الموقع الاستراتيجي والتي يوجد بها المستعمر التركي والنفوذ الاستعماري الغربي[3]. من أجل هذا كله رأى المهدي أن يبدأ مشواره في تأسيس دولته بمصر.

وعليه تمشياً مع هذا الاستقلال السياسي الذي تمتعت به دولة المهدية فلا بد أن يتجه بهذه الدولة الناشئة للبحث عن استقلال اقتصادي حتى تقف على أرجلها، وإلا تعتمد على الآخرين لمدها بالأموال والمؤن. فلذلك كانت قرارات المهدي في هذا الجانب تتمثل في ضرب العملات الذهبية والفضية. وأستخدم في ذلك ما استولى عليه من غنائم ذهبية وفضية في معاركه التي خاضها مع الجيوش التركية المصرية في مدينة الأبيض والخرطوم. وقد حقق المهدي نجاحاً كبيراً، فأصبح السودان ينعم بكامل الاستقلال السياسي والمادي[4].

---

1 ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص ١٦٧- ١٦٨، أغسطس ١٩٦٤.

2 عبدالعزيز حسين الصاوي، محمد على جادين: الثورة المهدية (مشروع رؤية جديدة) ص ١- ٢٩، شركة الفارابي، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

3 ضرار صالح ضرار: مرجع سابق، ص ١٩٥.

4 نفس المرجع، ص ١٩٥.

وكانت الخطوة التي أقبل إليها المهدي بعد ذلك والتي تتمثل أيضاً في تكوين هذه الدولة وضع سياسة خارجية واضحة المعالم. ولكن في البدء كان لا بد له من الاتجاه لدعم الوحدة الداخلية حتى يتماسك أبناء هذا الشعب ويتكاتفوا ويتناصروا، وهذا هو العامل الأول الذي يؤدي إلى إنجاح السياسة الخارجية. ومن ثم بدأ المهدي يعد لهذا الأمر عدته، فرأي أن السبيل الوحيد لهذه الوحدة الداخلية العودة بهذا الدين إلى أصوله وبساطته التي عرف بها، حتى يتمكن من جذب أكبر عدد من الناس. فلا بد إذا العودة بهذا الدين إلى أيام النبوة، ولهذا أمر بتعطيل كل المذاهب وإبطال الفرق الصوفية والرجوع فقط إلى الكتاب والسنة، لأنهما الأصل. وبهذا تعود لهذا الشعب وحدته الداخلية[1].

ومن ثم يبدأ بعد ذلك الانطلاق الخارجي، والذي هدف منه المهدي نشر هذه الدعوة خارجياً، فكان يخطط لوصول إلى مصر أولاً، ثم يواصل فتوحاته فيصل إلى سوريا، وتركيا والحجاز والهدف من ذلك هو إنقاذ المسلمين من المستعمر، وتجديد أمر هذا الدين[2]. وكلف بهذه المهمة الخطيرة القائد عبدالرحمن النجومي[3] بعد سقوط حامية سنار[4] وخاطب في ذلك المهدي خديوي مصر وواليها الخديوي توفيق طالباً منه أن يقف معه من أجل محاربة المستعمر الذي لا يريد أن يكون للإسلام مجداً وعزاً وذلك بعد أن وضح له أنه المهدي المنتظر الذي أظهره الله ليعود بهذا الدين إلى ما كان عليه في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم وأرضاهم) وبعد أن أستدل له في خطابه بكثير من الآيات القرآنية[5].

---

1 عبدالودود إبراهيم شلبي: الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته، ص ٢٠٨ – ٢٢١، دار المعارف القاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

2 ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، ١٧٠- ١٧٣.

3 عبدالرحمن النجومي: من قبيلة الجعليين، ومن المتفقهين في الدين وحافظاً للقرآن وقد انضم للمهدية في مراحلها الأولى بالجزيرة أبا ١٨٨١م ومنذ ذلك التاريخ عرف بإخلاصه وتفانيه في خدمة الثورة المهدية وقائدها الروحي، فلذلك فهو يعتبر من أبكار المهدي وقواده البارعين. عبدالعزيز حسين الصاوي، محمد على جادين: الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة، ص ١٣١.

4 K.D.D Henderson: Sudan Republic. P.43. London.

5 محمد إبراهيم أبو سليم: منشورات الإمام المهدي، ج ٢، ص ٢٧٧- ٢٨٣ إدارة المخطوطات المركزية، وزارة الداخلية بالخرطوم، ط ٦. السيد على المهدي: الأقوال المروية في تاريخ المهدية ص ٩٨- ١٠٤، أم درمان ١٩٦٥م.

أدرك الإنجليز في مصر ما ينوي عليه الإمام المهدي وما يخطط له فكانوا يخشون أن تؤثر دعوته هذه في أبناء الشعب المصري متى ما وصلت جيوش المهدية إليهم. فقد كان قرارهم الذي اتفقوا عليه هو الدفاع عن مصر وبكل ما يملكون.

وقد ذكر أن أبناء صعيد مصر كانوا ينتظرون قدوم هذه الجيوش إليهم للانضمام إليها، والاتحاد سوياً لطرد عدوهم الأول الإنجليز، وقد أرادوا من ذلك الخلاص منهم[1]. ولكن كما يتضح لنا أن هذا لم يحدث، ربما لأن المصريين شعروا بضعف حملة النجومي فلم ينضموا إليها حفاظاً على أرواحهم، وقد يكون ذلك لأن القرار في يد الإنجليز وليس في أيديهم.

وقيل إن اليونانيين الذين زاروا المهدي ذكروا لقنصل دولتهم، أن المهدي يخفي الفلفل تحت أظافره، وعندما يأتي إليه زواره يلمس عينيه لتدمعا ويتظاهر بالبكاء. كما أنه يأكل في الخفاء طعاماً جيداً، كما أنه يتناول الخمر ويتظاهر مع الناس بغير ذلك[2]. ولكني أؤكد أن هذا كله إفك وافتراء على المهدي وأنصاره، ولا يمكن لمفجر هذه الثورة الدينية الذي جعل الشريعة منهاجاً لدولته، بل يريد أن ينشر هذا الدين في معظم دول الجوار، وقد خاطب في ذلك كثير من الملوك والزعماء أن يتظاهر بالتمسك بالدين، ويخفي ما هو غير ذلك ولكن هذه الدولة التي رسم لها الإمام المهدي، وخطط لها لم يسعد بتأسيسها. فقد اختطفته يد المنون في يوم الجمعة ٩ رمضان ١٣٠٢هـ/ ٢٦ يونيو ١٨٨٥م ليتولى الأمر بعده الخليفة عبدالله بن محمد من قبيلة التعايشة، بعد أن بايعه بقية الخلفاء في أم درمان، ليصبح بعد هذه المبايعة المسئول الأول عن هذه الدولة في السودان[3].

بداية الإعداد لغزو مصر:

بتولى الخليفة عبدالله للحكم بدأت الخلافات تظهر على السطح كما أخذت الفتن الداخلية تطل برأسها من حين لآخر. ومن أهم هذه الفتن فتنة الأشراف، والذين كان يتزعمهم الخليفة شريف صاحب الراية الحمراء، والتي تتكون من أقرباء المهدي، ومن

---

1 K.D.D. HENDERSON: Sudan Republic. P.43.

2 اللورد كرومر: بريطانيا في السودان ، تعريب عبدالعزيز أحمد عرابي، ص ٢١٩ (د.ت).

3 مكي شبيكة: تاريخ السودان الحديث، ص ٨٦، ط ٢، ١٩٦٥م.

هذا المنطلق يرون أن الخلافة يجب أن تكون لهم. ثم ظهرت كذلك كثيراً من الثورات الداخلية، والتي أخذت منه وقتاً طويلاً، ومما جعله يتأخر قليلاً في تنفيذ السياسة الخارجية التي خطط لها المهدي، وكان مصمماً على تنفيذها لولا أن يد المنون اختطفته قبل ذلك[1].

قبل التوجه إلى مصر، دارت المعارك بين جيوش الخليفة عبدالله والأحباش بقيادة ملكهم يوحنا، وقد تمكن حمدان أبو عنجة ثم الزاكي طمل من تحقيق الانتصارات على جيوش الحبشة والتي كان لها مفعولاً سحرياً في جيوش المهدية، فقد زادت مكانة الخليفة عبدالله التعايشي، وعلت منزلته، ومن نتائج ذلك أن عمت البلاد وحدة داخلية عظيمة[2]، ومن ثم بدأ الخليفة عبدالله يفكر في غزو مصر تنفيذا للسياسة الخارجية التي رسمها وخطط لها الإمام المهدي[3].

بعد أن تحقق النصر للسودانيين على الأحباش في رجب ١٢٠٦هـ/ الموافق مارس ١٨٨٩م، حققت دولة المهدية بعض تطلعاتها الخارجية فهذه الدولة قد تمكنت من طرد كلاً من المصريين والبريطانيين والانتصار على الأحباش في أرضهم. ولا شك أن هذا مجهود كبير قامت به هذه الدولة، وهذا بالطبع قد أدى إلى إرهاقها، وكان من المفترض أن تأخذ هذه الدولة وقتاً لإعادة ترتيب الأمور وإعدادها للمرحلة القادمة لا سيما وأنها أخذت الآن تسع سنوات في جهاد مستمر ضد الأتراك وبقية أعدائها، لأن الإمام المهدي كان قد أعلن الجهاد ضد الأتراك منذ عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م[4].

لا شك أن هذه الانتصارات قد ألهبت في الناس روح الحماس، وأشعلت فيهم روح الجهاد وكان الأنصار يعتقدون أنهم وبهذا الحماس اللا محدود، سوف يحققون انتصارات أكبر وفي مختلف الأصعدة مما جعلهم يفكرون في غزو مصر[5].

---

1 ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص ١٧٨- ١٨٩.

2 محمد سعيد القدال: المهدية والحبشة، ص ٤٨- ١٠٨، دار النشر جامعة الخرطوم، نوفمبر، ١٩٧٢م.

3 مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن التاسع عشر، ص٥- ١٤، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
P.M.Halt and M.W.Dally, Ahistory of The Sudan, P.102-103.London.

4 سيد فؤاد: مصر والسودان، ص ٣٨٨- ٣٩٢، (د.ت).

5 ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص ١٩٤.

وإذا نظرنا إلى السودان آنذاك نجده قد أصبح مطمعاً للعديد من الدول وخاصة الأوربية، ففرنسا تظهر نواياها ومطامعها في السودان منذ عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م. وبريطانيا قد وضحت مطامعها عندما استولى الإنجليز على مصر وواصلوا توغلهم حتى وادي حلفا، وكانوا يقومون بإعداد كبير لجيوشهم المؤلفة من أبناء مصر، وبعض السود السودانيين. وكانوا يرمون من وراء ذلك القضاء على دولة المهدية، وأمتد هذا التحدي حتى تمكنوا من احتلال سواكن في شرق السودان، ضاربين بذلك حصاراً على الشواطئ ليمنعوا الحج والصادرات والواردات وأهمها الأسلحة النارية والمواد الغذائية من خارج البلاد. وهذا بالطبع كان له مردوده السلبي على قوات الأمير عثمان دقنة في الشرق[1].

إنذار أهل مصر:-

وضح لنا جلياً الموقف البريطاني، والذي يهمه أولاً وأخيراً الدفاع عن مصر ذات الموقع الاستراتيجي. أما من جانب الخليفة عبدالله فقد وجه إنذاراً لأهل مصر قبل أن يحرك لهم جيوش المهدية وقد جاء في هذا الإنذار (إلى أحبابه في الله أهالي الريف والجهات البحرية كافة، اعلموا أنه ما حملني على نصحكم ولا دعاني إلى بسط العنان في عظتكم إلا مزيد من الشفقة عليكم، والخوف من أن لا تنجح فيكم المواعظ غروراً بالأماني الكاذبة، وركوناً إلى راحة الدنيا الفانية الذاهبة، فتدور عليكم الدوائر كما دارت على من قبلكم في بلاد السودان لما اعرضوا عن قبول الحق، وجنحوا إلى إيقاع أقوال علماء السوء الذين أضلهم الله على علم واغتروا بأكاذيب حكامهم، وكثرة عدد جنودهم وعددهم العارية عن معونة الله تعالى، فختم الله على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة، وحاق بهم مكرهم هلكوا وحرقت النار أجسامهم، وخسروا الدارين والعياذ بالله. ولكم فيها عبر وعندكم من أمرهم خبر والسعيد من اتعظ بغيره، ونظر في صلاح عاقبته وكشف ضميره)[2].

---

1 ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، ص ١٩٠.

2 مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٤٠٢، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٤م.

كما وجه إنذاراً إلى خديوي مصر الخديوي توفيق قائلاً: (وكيف يليق بمن يؤمن بالله واليوم الآخر حب العلو في الدنيا بعد العلم بقول الله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[1] وأعلم إنما دعوناك إليه هو الدين الحق القديم، والمنهاج الواضح المستقيم، فلا تعرض عنه إلى نزعات الباطل، فإن الحق جدير بالإتباع، والباطل حري بالتلاشي والضياع. ولو كان قصدي من هذا الأمر ملك الدنيا الزائل، وعزها الفاني الذي ما تحته طائل، لكان في السودان وملحقاتها كفاية كما تعلم من أقسامها وتنوع ثمراتها. ولكن ما القصد كما يعلم الله إلا إحياء السنة المحمدية، والطريقة النبوية، بين أظهر عامة البرية، ولو نظرت بعين البصيرة والإنصاف، وتركت التعامي عن الحق، والاعتساف لأذعنت لي بذلك، وسلكت بإتباعي أحسن المسالك. وتيقنت أنك الآن بمعزل عن الهداية، حيث اتخذت الكافرين أولياء من دون المؤمنين أهل العناية. وركنت إلى مؤاخاتهم والانخراط في سلكهم حتى كأنك تريد بهم إطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره أعداؤه)[2].

كما خاطب السلطان عبدالحميد خليفة الدولة العثمانية قائلاً: (ومع كونك تدعي أنك سلطان الإسلام القائم بتأييد سنة خير الأنام. فما لك معرضاً من إجابة داعي الله إلى هذا الآن أو مقراً رعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر والعدوان فهل أمنت مكر الله، أم كذبت وعد الله حتى صرفت مجهودك في إعانة أهل الأصنام، على هدم أركان الإسلام[3].

وبعد هذه الإنذارات والتي تحمل في طياتها النصائح القيمة لأهل مصر والسلطان عبدالحميد، وتدعوهم لنصرة الإسلام والانتصار على الكفرة عبدة الأصنام. كما حملت أيضاً التهديد والوعيد لمن لا يؤمن بمبادئ الدعوة المهدية، وان جند الله الذين ينتمون إلى المهدية يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويهبون أنفسهم رخيصة فداء لهذا الدين.

ارتدت حملة الإنقاذ التي جاءت لإنقاذ غردون شمالاً بعد أن أدركت أن الشخص الذي يودون إنقاذه قد قتل. فتحرك محمد خير بجيوشه خلفها، فكان التلاحم بينه

1 سورة القصص الآية (٨٣).
2 مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٤٠٢- ٤٠٣.
3 مكي شبيكة، نفس المرجع، ص ٤٠٤.

وبين الجيش الإنجليزي في معركة حامية الوطيس. وقد أبلى فيها الأنصار بلاء حسناً بقيادة عبدالماجد ابن أخ محمد خير، وكان النصر حليف الجيش الغازي، بعد أن ترك الأنصار خلفهم عدداً من الشهداء، ومن ثم أنسحب الجيش الغازي إلى حلفا ليقيموا معسكرهم في هذه المنطقة[1]، وهذا يوضح جلياً رغبة الإنجليز في البقاء في مصر، وحماية جنوبها من جنود المهدية ومن ثم التوجه مستقبلاً لالتهام هذه الدولة والسيطرة على السودان.

عندما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة عبدالله قرر أن تتحرك قوات الخليفة شريف لفتح مصر، وتنفيذاً لهذا القرار بدأت مقدمة الخليفة شريف تغادر مدينة أم درمان متجهة إلى مصر، وكان هذا الجيش تحت امرة عبدالرحمن النجومي. ولكن مؤامرة الأشراف الأولى على الخليفة عبدالله جعلته يصرف النظر عن قيام الخليفة شريف بهذا الأمر وأوكله للقائد عبدالرحمن النجومي[2].

كان لابد للخليفة عبدالله أن يتخذ من الأساليب التكتيكية والخداعية للحصول على مصر، فلذلك نجده قد اعتمد في أسلوبه على بث الدعاية ضد العدو المشترك لمصر والسودان وهو العدو البريطاني، فأرسل إلى قبيلة العبابدة التي تسكن الحدود المصرية السودانية، ثم خاطب أهل مصر لمقاومة العدو البريطاني أو الانضمام لإخوانهم الأنصار في نضالهم وحربهم لعناصر الكفر والاستعمار. ولكن مما يؤسف له كانت الاستجابة ضعيفة جداً، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى الهيمنة الكاملة التي فرضها المستعمر البريطاني على المنطقة، ولا أحد آنذاك يمكنه أن يتجرأ ويعلن معارضته ومقاومته للعدو البريطاني.[3]

ومما يؤكد هذا الذي ذكرته أن الخليفة وصله ما يفيد أن معظم أهل الجهات المصرية متشوقون للإندراج في سلك المهدية ومحاربة عدوهم المشترك بريطانيا، ولكنهم لا يستطيعون مع الهيمنة البريطانية[4].

---

1 مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٤٠٣- ٤٠٤.

2 نفس المرجع السابق، ص ٤٠٤- ٤٠٥.

3 ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص ١٩٤ – ١٩٥.

4 نعوم شقير: تاريخ السودان، ص٦٩٧ تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم، مكتبة دار الجيل، بيروت ١٩٨١م.

اندلعت في ذلك الوقت بعض الثورات القبلية في الغرب، واستطاع الخليفة أن يخمدها جميعاً ومن ثم بدأت أنظاره تتجه نحو الشمال والذي تركنا فيه عبدالرحمن النجومي وقد عسكر بجيوشه في دنقلا وفي انتظار إشارة الخليفة عبدالله له بالتحرك إلى مصر[1].

خاطب الخليفة عبدالله مشايخ العبابدة، وبعض أهالي الصعيد وكتب إلى أهل دنقلا، وإلى محمد خير في برير، وإلى عبدالله ود سعد في المتمة، أن يجمعا الجيوش ويلحقا بالنجومي[2].

خرج النجومي من دنقلا التي قضى بها ثلاثة أعوام[3] في ٣٠ رمضان سنة ١٤٠٦هـ/ ٣ مايو ١٨٨٩م بجيش مؤلف من ٤٠٠٠ مقاتل و٧٠٠٠ من النساء والأطفال ومعهم ٣٠٠ بندقية و١٠ مدفع و٣٠٠ جواد و٥٥٠ جمل و٣٠٠٠ حمار ووزع للرجل منهم ٣ قراريط ذرة، و٣ قراريط من الشعير، ٣ قراريط من التمر، وللأمير ما يساوي الأردب الواحد من كل صنف، وقد سار بالبر الغربي مع علمه بأفضلية البر الشرقي ليتجنب حصون الجيش. وقد ذكرت معلومات أخرى عن تعداد الجيش سوف نتعرض لها لاحقاً[4].

وعندما وصل منطقة سرس ٢٠ ذو الحجة ١٣٠٦هـ/٢٢يونيو ١٨٨٩م استقبله عبدالحليم مساعد ومعه من الأنصار ١٢٠٠ مقاتل و١٠٠٠ من النساء والأطفال ومعهم ٣٠٠ بندقية و٤ مدافع و٥٠ حصاناً و٥٠ جملاً[5].

ولكي يكتمل الإعداد لهذه المعركة قسم عبدالرحمن النجومي جيشه إلى ثلاثة أركان. الركن الأول يتكون من أبناء الجعليين والبطاحين وعليهم ابن أخيه أحمد بشير، والركن الثاني من الدناقلة والمولدين وعليهم عثمان أزرق، والركن الثالث من البقارة من حمر وهبانية ومسيرية وأولاد حميد وعليهم إسماعيل عبدالجايد من أولاد حميد وجعل عليهم عبدالحليم مساعد وكيلاً له في الجيش[6].

---

1 مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٤١٢.

2 نعوم شقير: تاريخ السودان، ص ٨٧٨ – ٨٧٩.

3 K.D.D. Henderson: Sudan Republic: P. 43.

4 نعوم شقير: مصدر سابق، ص٧٧٨ - ٧٧٩

5 اللورد كرومر: بريطانيا في السودان، ص ٢٢١.

6 نعوم شقير: مصدر سابق ، ص ٧٧٩.

وما نلاحظه أن هذه الحملة لم تقصر على الأشراف، أو أهل القبائل النيلية، وإنما ضمت قبائل عدة من بينها قبائل من غرب السودان وهذا يدل على قوميتها، وينفي الزعم القائل أن الخليفة أراد القضاء على قوة الأشراف بإرسال هذه الحملة الضعيفة، فإذا أراد ذلك كان ينبغي له ألا يرسل فيها قوة من أبناء البقارة الذين ينتمون إليه.

ما نلاحظه كذلك الكم الهائل من النساء والأطفال الذين اصطحبوا هذه الحملة وهذا قد نجد له بعض التفسيرات منها:

١. أن أفراد هذا الجيش كانوا يأملون في النصر الكبير والاستقرار بأسرهم في مصر وهذا هو الأرجح.
٢. وربما لأن الرحلة إلى مصر تأخذ وقتاً طويلاً فلا يستطيعون التخلي عن أسرهم طوال هذه الفترة.

مصاعب واجهت الحملة:-

واجهت هذه الحملة مصاعب كبيرة بدأت تأخذ طريقها إليها فقد أورد بعض المؤرخين أن قائد الحملة عبدالرحمن النجومي وهو من الأشراف، كان في خلاف مع مساعد قيدوم وهو من أبناء الغرب، وسر ومرد ذلك أن مساعد قيدوم يريد من عبدالرحمن النجومي أن يستشيره في كل أموره وألا ينفرد وحده بالرأي والتدبير، هذا من جانب، أما من جانب عبدالرحمن النجومي فقد عينه الخليفة عاملاً على المديرية الشمالية، وكما هو معلوم فإن الصراع بين الخليفة عبدالله والأشراف لا زال قائماً ويمثل هذا الموقف قمة الصراع إذ يرفض عبدالرحمن النجومي أن يكون مساعده من أبناء الغرب[1].

ولكن عندما أرسل الخليفة مساعد قيدوم إلى عبدالرحمن النجومي لمساعدته أمره قائلاً أن يكون مع الحبيب عبدالرحمن النجومي كالميت بين يدي الغاسل، وان تكون له عضداً وساعداً وخادماً وأخاً وملازماً وتلقي زمام أمرك إليه وتضع بنفسك تحت نعله ولا تقدم على أي أمر إلا بإذنه، وسلّم إليه الأمر ظاهراً وباطناً[2].

Makki Shibeka. The Independent Sudan. P. 340 New Yourk 1

2 د. عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن: توشكي دراسة تاريخية لحملة عبدالرحمن النجومي على مصر، ص ١٦٧ ، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر.

وهذا ينفي ما أورده نعوم شقير أن الخليفة أرسل مساعد قيدوم وهو من أهله ليكون وكيلاً للنجومي في الظاهر، ورقيباً عليه في الباطن، فلذلك بدأ ينازعه في السلطة ولم يأذن له أن يقطع أمراً إلا بمشورته[1].

بعد العراقيل التي وضعها مساعد قيدوم أمام النجومي وذلك باعتراضه دائماً على قرارته لم يكن أمام قائد الحملة إلا والتوجه إلى أم درمان لمقابلة الخليفة عبدالله، حتى يضع بين يديه هذه المشكلة الكبيرة التي ألمت به وبجيشه، في هذا الظرف القاسي والحملة تستعد للتوجه إلى مصر[2].

بعد أن وصل الأمير عبدالرحمن النجومي إلى الخليفة وأخبره بالمشكلة التي ظل يعاني منها إلا أن الخليفة لم يهتم بهذه الشكوى بحجة أن الأمير النجومي هو القائد العام وعليه أن يتعاون مع مساعديه ويكسب ثقتهم وأن ينال رضى الجميع بالمنطقة حتى يجد الإحترام من معاونيه بصفة خاصة وأهل المنطقة بصفة عامة ويقال إن الأمير النجومي رجع إلى جيشه وفي نفسه أشياء ولكن إيمانه بالمهدية كان أكبر من أن تهزه هذه الصغائر[3].

وقد ذكر نعوم شقير[4] في ذلك الكثير والذي لا نود أن نذكره بل نقول فيه إن هذا الذي ذكره لا يمت إلى ما هو واقع بصلة، إذ أن هناك ما يؤكد أن النجومي هو الذي طلب زيارة الخليفة عبدالله، وقد أخبر الخليفة بأن قلبه قد تعلق بمقابلة طلعته البهية، وذاته الكريمة المرضية، ليظفر بالرضى والعفو من الخليفة، ويجدد البيعة له، وقد أذن له الخليفة في ذلك وعفا عنه، أما تأنيب الخليفة له فيرجع ذلك إلى حرص الخليفة الشديد على مواصلة الجهاد ضد الترك وليس التشفي أو الاستخفاف منه[5].

ولهذا ينبغي لنا ألا نبالغ في وصف هذه الخلافات التي حدثت بين قادة المنطقة الشمالية، وهذا أمر طبيعي يحدث في كل جيوش المهدية، وهي خلافات وقتية فرضتها بعض الظروف والصعوبات التي واجهتها الحملة.

---

1 نعوم شقير: تاريخ السودان ، ص ٧٧٦.

2 مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٤١٣ – ٤١٤.

3 مكي شبيكة: نفس المرجع، ص ٤١٤.

4 نعوم شقير، مصدر سابق، ص ٧٧٧.

5 د. عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن: توشكي، ص ١٧١- ١٧٢.

كان لا بد للخليفة أن يهتم بهذه المشكلة، فبعث بعض الشخصيات من الأمناء[1] لحل هذا النزاع. وكان هذا هو ديدن الخليفة عبدالله دائماً في أن يرسل الأمناء لفض النزاعات، وإذا فشل هؤلاء يرفع الأمر إلى الخليفة عبدالله. وعندما جاء هؤلاء استقر رأيهم أن يرجع مساعد قيدوم إلى أم درمان، ولكن كانت الطامة الكبرى عندما عين الخليفة يونس الدكيم أميراً عاماً لدنقلا يقيم فيها على أن يغادرها النجومي إلى مصر، ليشتعل الخلاف مرة أخرى بين النجومي ويونس الدكيم وقد أرسل الخليفة مع النجومي الذين لا يأمن جانبهم، وبقى يونس في دنقلا بجيش قوي بحجة المحافظة عليها[2].

ولكني أعتقد وأتفق في ذلك مع بعض المؤرخين، أن ما ذكره نعوم شقير في تصوير أن أكبر الأخطاء التي اتخذها الخليفة إرسال يونس الدكيم إلى المنطقة بسلطات أعلى من النجومي، مما جعل النجومي يسخط من إدارة الخليفة وقراراته، وقد نجد العذر للخليفة عبدالله من إرسال يونس الدكيم صاحب الخبرة والتجربة مع الحبشة والتي تؤهله إلى القيام بهذا الأمر، وقد أراد منه الخليفة توحيد الصفوف لجيوش المهدية في الجهة الشمالية. وهذا يتضح من خطابه الذي أرسله إليه: (كنت قد عينتك بجهة الجمع لإصلاح أمر الدين بها، ونشر العدل، وإظهار شعائر الإسلام، وبتوفيق الله لك وعونه إياك قد حققت الظن بك، وقمت بواجب ما طوقت به، وسرت بالسير المرضي والمنهج السني، حتى أصلحت فساد تلك الجهة)[3] وهكذا يتضح لنا أن الخليفة يعتمد على المقدرات التي أظهرها يونس الدكيم في المنطقة الشرقية، فرمى به في هذه المنطقة للقضاء على المشاكل التي تراكمت في الجهة الشمالية[4].

ثم خاطب الخليفة عبدالرحمن النجومي قائلاً:

(... فلنعلمك أيها المكرم أنك معدود لدينا من الأعوان الصادقين الذين لا قصد لهم إلا إقامة الدين، وتوسيع دائرة الإسلام، وقطع دابر أعداء الله اللئام، والظن بك جميل، وسعيك لدينا مشكور ... فليكن بعلمك إنا بحسب المصلحة الدينية قد جعلنا المكرم يونس

1 الأمناء: هم أبو بكر الحاج، ومكي أبو حراز ، والهادي دفع الله ، نعوم شقير ، تاريخ السودان، ص ٧٧٧.

2 نعوم شقير: مصدر سابق ، ص ٧٧٧.

3 د. عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن: توشكي، ص ١٧٥.

4 نفس المرجع، ص ١٧٥.

الدكيم عاملاً عليكم، وعلى كافة الجيش الذي معكم وإلزامكم طاعته، وامتثال أمره ونهيه وكن ليونس المذكور أطوع من اليد وكاليت بين يدي الغاسل، ولا يحصل منك معه إلا كل خير فإن رضانا في ذلك ...)[1] وخاطب مساعد قيدوم بخطاب مثل هذا. إلا أن خطاب النجومي أطول قليلاً لمكانة النجومي عند الخليفة. وعند تلاوة هذا الخطاب في المسجد تقدم عبدالرحمن النجومي ليونس الدكيم الذي كان جالساً بالمحراب فسلمه سيفه وحرابه، بل قيل أن حتى سكينه وضعها بين يديه مما جعل يونس الدكيم يتوجه بالشكر والثناء واصفاً له بأنه من أبكار المهدية ومن أعظم القادة المنصورين[2].

أما فيما يختص بموقف الخليفة عبدالله مع هذه الحملة، وعن الاتهامات التي وجهت له وأنه قد قصد إرسال هذه الحملة الضعيفة العدد والعدة لأنه أراد القضاء على قوة الأشراف بزعامة النجومي، لأنه كان قد أرسل إلى الحبشة جيشاً مكوناً من سبعين ألف مقاتل، فكيف له أن يرسل هذا الجيش الضعيف للقضاء على مصر ذات التاريخ العريق، والتي هي بلا شك أكثر تقدماً وتعداداً من الحبشة، وفوق ذلك سوف يلتقي هذا الجيش بأرتال من الجيش البريطاني الموجود بمصر، والتي لن تتوقف لحظة في الدفاع عن مصر ذات الموقع الاستراتيجي والامكانات الكبيرة[3].

ولكن فقد ذكر بعض المؤرخين أن أعداد جيش النجومي الحقيقية لم تعرف ولا توجد إحصاءات دقيقة حيث بلغت عند بعض المؤرخين إلى سبعين ألفاً من المقاتلين إلا أنهم تفرقوا عنه في الطريق لظروف الحملة القاسية[4]، وقيل غير ذلك في عدد هذه الحملة.

أما الاتهام الثاني الذي وجه للخليفة عبدالله بأنه لم يقم باللازم حيال هذا الجيش، ومده بالمؤن والغذاءات، فإن الخليفة كان قد اهتم بهذا الأمر وخاطب يونس الدكيم وعثمان الدكيم، والنور إبراهيم الجريفاوي[5]، طالباً منهم توفير الإمدادات لهذا الجيش. وكان قد أرسل ليونس الدكيم مبلغاً من المال عدته سبعة ألف ريال، وكما أشرنا قبل ذلك أن الخليفة كان قد خاطب قبائل المنطقة للانخراط في هذه الحملة

---

1 عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن: توشكي، ص ١٧٥- ١٧٦.

2 د. نفس المرجع، ص ١٧٦.

3 ضرار صالح : تاريخ السودان ، ص ١٩٥.

4 إبراهيم فوزي باشا : السودان بين يدي غردون وكتشنر، ج/١ ، ص ١٧٥.

5 هم عمال المهدية في تلك الجهات، د. عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن، مرجع سابق ، ص ١٧٨.

ومدها بما تحتاجه من المؤن والغذاءات. وعلى الرغم مما بذل في هذا الجانب، إلا أنه في ذلك الوقت جميع البلاد مهددة بالمجاعة المعروفة بمجاعة سنة ١٣٠٦هـ[1].

وهذا أيضاً ينفي هذا الإفك وهذا الافتراء على الخليفة عبدالله، بأنه أحجم في أن يمد جنود هذه الحملة بالغذاءات، حتى يتسبب في دمار قوة الأشراف ونهايتهم، فهو كما ذكرنا بذل ما في وسعه أن يبذله لمد الحملة بما تحتاج إليه، وأصدر الأوامر لمختلف الجهات لمساعدة الحملة. ولكن ظروف البلاد والتي تعاني آنذاك من شح في الغذاءات في بسبب مجاعة سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م التي ضربت البلاد.

لا شك أن هذه الحالة التي يعيشها عبدالرحمن النجومي قد أضعفت من معنوياته، بل قضت عليها ودمرتها، فتحرك وهو في حالة من اليأس، وفقدان الأمل لاسيما وان جيشه كان يتكون من أربعة آلاف مقاتل، ومعهم سبعة آلاف من النساء والأطفال، وما بحوزتهم من الغذاء لا يتناسب وهذا العدد، وأنهم سوف يمرون بمنطقة فقيرة للغاية قليلة الثمار والإنتاج، فتحركت الحملة في هذه الظروف القاسية في مايو سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م[2].

وكذلك من الصعاب التي واجهت الحملة أن قائد القوات الموجودة في الحدود السودانية المصرية ودهاوس باشا قد استغل هذا الوضع وسير جموعاً من جيوشه، مصدراً أوامره لأهل القرى بالضفة الغربية للنيل أن يخلوا القرى من المواطنين والأغذية، وجميع المؤون حتى يتركوها للأنصار خراباً لا يجدون فيها ما يقتاتون به. وأمرهم كذلك بالتوجه نحو الضفة الشرقية وأن جيش الحدود هو المسئول عن توفير الأمن والحماية لهم[3].

وهذا يذكرنا تماماً بما فعله الإمام المهدي، مع أهل القرى الذين كانت تمر بهم حملة هكس المتجهة إليه في كردفان فقد أمر أهل القرى بهجر قراهم وتدمير الآبار، مما جعل الطريق لحملة هكس شاقاً وطويلاً، وانعدمت فيه مقومات الحياة. وهذا ما فعله الروس كذلك أمام زحف نابليون، وفي التاريخ عبرة لمن يعتبر[4].

---

1 د. عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن: توشكي، ص ١٧٨- ١٧٩.

2 مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٧٢١.

3 مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٤١٤.

4 ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص ١٤٠.

وعليه فقد نقل ود هاوس ما يقرب من ألفين من جنوده إلى أرقين[1]، وذلك حتى يستفيد من المباني والخدمات بهذه المنطقة حيث كانت بها الطوابي والاستحكامات لجنده. كما تم إرسال الوابورات إلى عرض النهر حتى تمد النقاط الضعيفة عند اللزوم، كما كان من واجباتها إعانة الجند بمدافعها، وهنا كانت المعاناة تتجسد في حاجة الأنصار إلى المياه من النيل ولكن كيف الحصول عليها. وذلك يرجع إلى السيطرة التامة التي فرضتها جيوش العدو على موارد المياه، فما كان من عبدالرحمن النجومي إلا وأن عقد مجلساً للنظر في هذا الأمر الذي لم يكن في حسبانهم، فكان قرار هذا المجلس الحصول على الماء مهما كلفهم ذلك من مخاطر. وهنا لا بد من ذكر مقولة النجومي المشهورة: (والله لا أرجعن إلى الوراء إلا محمولاً على الأكتاف، فإذا عطشنا أو جعنا فإنما نحن في جهاد، فلنتذرع بالصبر والثبات، حتى نعود بالنصر أو الشهادة) وقد قالها وهو يهز بسيفه في الهواء، وأقتحم النيل في حماس وعزة نفس تمثل لنا أروع اللوحات البطولية، تجسد قوة الرجال، وعزم الأبطال، لحماية الدين والعرض والوطن. ولكن كانت الخسارة عظيمة ومؤلمة لهذا الجيش الذي يعاني من نقص في العدد وقلة الغذاءات، وقد استشهد من هذا الجيش في معركة اقتحام المياه ما يقرب من الألف شهيد. مما جعل بعض الأنصار يذهبون إلى النيل في جنح الظلام لحمل المياه إلى بقية الجيش في الصحراء بعيداً عن مرامي جيش ود هاوس[2].

في هذه المعركة خسر النجومي هذا العدد من جنوده وبين هؤلاء بعض القادة والأمراء وقيل إن خسارة المصريين بلغت أربعة ضباط وستة وستين جندياً بين قتلى وجرحى[3]، وكانت هذه المعركة في يوم ٤ ذي القعدة ١٣٠٦هـ/ ٢ يونيو ١٨٨٩م[4].

وهذه العملية التي تمت بعثت الثقة في نفوس الأعداء وجعلتهم أكثر ثباتاً ويقيناً، كما كان لها مردودها السلبي على قوات عبدالرحمن النجومي، هذه القوات التي

---

1 أرقين: بلدة مستطيلة تمتد على النيل نحو أربعة أميال في وسط غابة من النخيل على نحو ثلاثة أميال من حلفا، وبها طابية صغيرة، نعوم شقير: تاريخ السودان، ص٧٨٠.

2 مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٤١٤- ٤١٥.

3 اللورد كرومر: بريطانيا في السودان، ص ٢٢١.

4 عبدالرحمن الرافعي، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، ص١٦٣، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٣٦٨هـ/ ١٩٦٦م.

بلغت معاناتها ما يعجز الإنسان عن وصفه. وقيل إنه بعد هذه المعركة نصحه مساعده الأول بالانسحاب حتى يستعد الجيش لا سيما وان المجاعة قد حصدتهم وبددت جمعهم ولكن القائد الأول عبدالرحمن النجومي رفض كل ذلك موضحاً أنهم يطلبون النصر أو الشهادة، ومما يجدر ذكره ما شهد به الأعداء بأن قوات الأنصار تتميز بالبسالة والإقدام وأنهم وهبوا أنفسهم رخيصة فداء لهذا الدين ولكنهم فقط منعتهم الإمدادات الغذائية كما أنهم في حاجة شديدة إلى بعض التنظيم والتكتيك داخل صفوفهم[1].

الرسل والرسائل قبل معركة توشكي:-

جرت العادة منذ أقدم العصور أن يأخذ التفاوض طريقة بين الجانبين وذلك قبل اندلاع القتال وهذا يحدث من أجل حقن الدماء وعدم إراقتها وفي كثير من الأحيان يصل المتخاصمون إلى رأب الصدع وكف الأذى ووقف القتال وهذا هو ما كان قبل توشكي فقد قيل إنه أثناء إقامة عبدالرحمن النجومي قائد جيش الخليفة بدنقلا العرضي وردت إليه رسالة من السيد محمد سر الختم، وكان ذلك في عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٦م يقول فيها: (إني عرضت .. لسمو أفندينا توفيق باشا خديوي مصر بأن أتدخل في شأن الصلح بين حكومة مصر وحكومة المهدية. وإنه قبل رأيي لأن أكتب إليكم وذلك لحقن الدماء بين الأمم ولذلك فإني أعرض عليكم الشروط المطلوبة ومتى وافقت عليها حكومة المهدي يجري الصلح بمقتضاها إن شاء الله)[2].

وقيل إن النجومي أرسل الخطاب إلى الخليفة عبدالله والذي عرضه بدوره على مجلس الشورى، فما كان منهم إلا أن رفضوا ذلك بالإجماع مما جعل الخليفة عبدالله يكتب ثلاث رسائل للخديوي توفيق والسلطان عبدالحميد والملكة فكتوريا. وأرسل لهم نسخ من راتب المهدي، وبعض الكساوي[3].

---

1 اللورد كرومر: بريطانيا في السودان، ص ٢٢٣.

2 محمد أبو القاسم حاج حمد: السودان المأزق التاريخي وآفاق المستقبل، ص ١١٢- ١١٣. المجلد الأول، دار ابن حزم، بيروت. ط ٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

3 نفس المرجع، ص ١١٣- ١١٦. محمد بهاء الدين العمري: الحركة المهدية وانعكاساتها على العلاقات المصرية السودانية، ص ٥٧، مكتبة أوزريس القاهرة، ١٩٦٤م.

وأيضاً مما يجدر ذكره أن الحكومة المصرية كانت قد أوفدت إلى وادي حلفا يوسف باشا شهدي وكانت تهدف من إرساله أن يفاوض الدراويش من أجل الوصول إلى حل وان يوفقوا محاولاتهم لغزو مصر وقيل أن ذلك كان في مايو ١٨٨٦م. ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل لأن الخليفة عبدالله كان مصمماً على غزو مصر ومهما كلف ذلك[1].

خاطب الخليفة أنصار دنقلا يحثهم ويدعوهم إلى الجهاد والطاعة لقائد جيوش المهدية عبدالرحمن النجومي، قائلاً: (وبعلمكم أن الله تعالى عظم أمر الجهاد واستغفر إليه جميع العباد ونوه بفضله كثيراً ووعد عليه أكيداً قال تعالى: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[2] وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ)[3] وقال نبيه المعظم إن مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد في سبيله كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد وقال ما معناه من نزل منزلاً يخيف فيه العدو كتب له كأجر ساجد لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة وأجر صائم لا يفطر إلى يوم القيامة وأجر قائم لا يقعد إلى يوم القيامة ... الخ)[4].

وأرسل النجومي إلى الخليفة يخبره بحاله قائلاً له: (سيدي وملاذي بعد إهداء مزيد السلام نرفع إلى مكارمكم عن أحوالنا وأحوال الأنصار الذين معنا إنهم قد مسهم الضرر الشديد الذي ما عليه من مزيد وأشتد بهم الحال، وفاق الأمر جداً فإن الجوع الحال بهم أضناهم وأذهب قواهم فورم أجسادهم وغير أحوالهم لأنهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه وانقطع عنهم من مدة. ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة ولشدة الضرر جلسوا جميعهم على الأرض وكثيرون منهم ماتوا جوعاً وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على

1 سيد فؤاد: مصر والسودان، ص ٣٩٣.

2 سورة التوبة، الآية (١١١).

3 سورة الصف الآية (٤).

4 نعوم شقير: تاريخ السودان، ص ٦٧٤- ٦٧٦.

البأساء والضراء رغبوا في الأعداء والجهادية والعبيد والخدم لحقوا أيضاً بالأعداء وارتدوا عن الدين، ولم يبق منهم إلا النادر، ثم إن الجهادية الذين أرسلوا معنا طوبجيه للمدافع من طرف سيدي يونس كانوا خمسة وثلاثين الجميع رغبوا في الفكرة وهربوا إليهم ولم يبق معنا منهم إلا ثلاثة ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا الوصول إلى بلاجة، والحاصل أن الأنصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب وطالما صبروا على ذلك لأنهم من عهد ما صرفوا بدنقلا لم يجدوا صرفاً أصلاً .. أما أهل الريف من معتوقة إلى بلاجة التي وصلنا إليها فكلهم قاموا في عون الكفرة وحزبوهم كل التحزب ومن دخولنا ديارهم إلى الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرج ولا راغب في الدين ولا من يريد تجارة بل الجميع حملوا الأسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة، وما من قرية من قراهم التي بشاطئ البحر الغربي إلا رأينا أهلها قد قطعوا أثقالهم بالشرق وأدخلوها الجزائر وتركوا القرية خالية لتكون حصناً لهم والكفرة لحرب الأنصار أما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل حيث قلنا، وعساكرهم ماشية بالشرق في خيل وجمال لمنع الأنصار ماء البحر، ولم يكن شرب الماء إلا بقتال ومضاربة واستشهاد وجراحات. وجزى الله الأنصار خيراً وبارك فيهم فإنهم مازالوا مطمئنين على حالهم، وثابتين على محاربة عدوهم، لا ينتظرون إلا النصر والظفر بالأعداء، أو الفوز بالشهادة ...الخ)[1].

وهكذا وصل الإعياء والتعب بهذا الجيش إلى هذه الدرجة التي لا يتصورها العقل، ولا يخطر ببال أحد وهذا ما هو متوقع أن يتعرض هذا الجيش لتجربة مريرة، إلا وأن يتدخل شيء لم يكن في الحسبان.

وصلت إلى النجومي رسالة من السردار غرنفيل، والذي كان يدير تحركات جيش الحدود تلغرافياً، ويسعى لحشد الجيوش في أسوان، وفي يوم ٦ ذي القعدة ١٣٠٦هـ/٥ يوليو ١٨٨٩ م خرج بأركان حربه متجهاً إلى معسكر ود هاوس في البلينة)[2] وباتصاله بالغازين من جيش النجومي أدرك الحالة السيئة التي يعيشها أفراد هذا الجيش. فأرسل

---

1 محمد بهاء الدين العمري: الحركة المهدية وانعكاساتها على العلاقات المصرية السودانية، ص ٥٨.

2 البلينة: هي بلاجة ومنطقة حدودية مع مصر، نعوم شقير، تاريخ السودان الحديث، ص ٧٩٢.

إليه رسالة مع رسولين بدأها قائلاً: (ما على الرسول إلا البلاغ وبعد فإني أكتب إليك يا ولد النجومي لأعلمك أن قائدي الباسل ود هاوس أخبرني بتهجمك على الحدود ... وقد بلغني انتهابك لمتلكات الناس المساكين الذين لا طاقة لهم بالدفاع عن أنفسهم، وأخذك نساءهم وأولادهم وتخريبك بلاداً كانت بالأمس عامرة مطمئنة، وكنت قد صممت على سحقك ومحو أثرك، وأثر أنصارك من وجه البسيطة بلا إنذار، ولكن عند مجيئي إلى هنا وجدت أنكم قوم مستضعفون مساكين تموتون جوعاً وعطشاً، وأنا عالم بسوء حالك أنت، وعالم أنك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الكذاب، الذي جعل ابن عمه يونس عاملاً في مكانك وجعلك تحت طاعته)[1].

وما ذكره غرنفيل عن أن الخليفة عبدالله التعايشي كذاب، فهو إفك وافتراء عليه، فالخليفة لا يعرف الكذب ولا الخداع وإنما عين ابن عمه يونس الدكيم عاملاً على المنطقة لأنه يثق فيه وفي خبرته ومقدرته بعد التجربة الناجحة التي اكتسبها بأرض الحبشة، وكما أشرنا قبل ذلك أن عبدالرحمن النجومي رحب ترحيباً حاراً بقدومه ولم يكره ذلك، لاسيما وأنه سيخلفه على منطقة دنقلا.

ثم تحدث غرنفيل في رسالته للنجومي قائلاً: (وأرسلك أنت والأعراب الذين يخشى شرهم بحجة فتح مصر وهو إنما يريد هلاككم، فإنه يعلم أن الذي أرسل إليه مستحيل عليكم بل أنتم أيضاً تعلمون ذلك ... فإنكم تلاقون فيها جيوشاً إنكليزية ومصرية متعطشة لشرب دماء الأعداء وعليه فإذا تقدمت إلى الأمام فأنت هالك لا محالة، وإذا رجعت إلى الوراء فإن جيوش حلفا واقفة لك بالمرصاد وإذا بقيت حيث أنت مت جوعاً وعطشاً ... لذلك ولما كانت حكومتنا السنية مجبولة على حب الشفقة والإنسانية ولا تريد قتل النفوس، ولاسيما النساء والأولاد، فقد جئتك بهذا أدعوك إلى التسليم، فإذا سلمت سلمت أنت ومن معك من الأمراء والأعوان. وأعلم أنك تأخذ هذا الوعد من جنرال إنكليزي ... وإني في انتظار الجواب على كتابي هذا مع رافعيه والسلام)[2].

1 نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث، ص ٧٨٤- ٧٨٥.

2 نفس المصدر، ص ٧٨٥.

كل هذا ينصب تحت طائلة الحرب النفسية التي أرادها الأعداء مع جيش النجومي، وكيف سمح هذا الكافر المغرور أن يصف الخليفة عبدالله قائد الدولة الإسلامية بالسودان بالكذب ويتحدث عن نفسه وكأنه أحد الأنبياء المرسلين الذي لا يعرف الكذب ولا النفاق والغش.

ولكن كان رد النجومي إليه أعظم الدروس وأبلغها إن كان يفهم ذلك فقد قال له بعد البسملة: (وبعد فمن عبد ربه المعتصم بمولاه عبدالرحمن النجومي، إلى السردار غرنفيل باشا هداه الله إلى الصراط المستقيم وسلام على من اتبع الهدى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. ثم نعلمك أن جوابك المرسل بإعلامنا بحضورك وما جئت لأجله وصلنا ولآخر ما ذكرته فيه وزعمته من الأقاويل التي لا طائل تحتها قد علم لدينا، ونقول لك أن ما بعثنا من طرف السيادة إلا لرعاية الناس والمسلمين وإدخالهم في سور الرحمة والهداية أجمعين ... فمن صدق وآمن وأتبع وسلم الأمر إلى الله تعالى ورسوله ﷺ ومهديه (عم) وخليفته عليه الرضوان وسلم جميع ما كان معه من الأسلحة والجباخين، أمناه على نفسه وماله وولده له ما لنا وعليه ما علينا. ومن خالف واتبع نفسه وهواه رأي إلا جماحاً فالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو أحكم الحاكمين)[1].

ثم أخبره بأن هذا الخطاب الذي جاء منه أرسلناه إلى يونس الدكيم، ومنه إلى خليفة المهدي الخليفة عبدالله للإطلاع عليه والرد بعد ذلك[2].

وأرسل الخليفة في يوم ٢ ذو الحجة ١٣٠٦هـ/٣٠ يوليو ١٨٨٩م إلى عبدالرحمن النجومي خطاباً يؤيده فيه على رده لغرنفيل، ويوضح له أن هذا الخبيث ما لجأ إلى مخاطبتكم إلا خوفاً منك كما فعل قبل ذلك في منطقة سواكن مع عثمان دقنه فقال: (... وقد علمنا من محرراته إن الذي حمله على ما قاله هو محض الخوف الشديد، فإنه لما كان بحمله سواكن، وحصلت المضايقة الشديدة من الأنصار على أهل القيقر، حرر مكاتبات مثل هذه إلى المكرم عثمان دقنه، ولما رفعها المذكور إلينا أميرنا بعدم الرد عليها، وصرف النظر عنها. ولما علم أن الأنصار لا يلتفتون إلى قوله، ولا يردون له

---

1 نعوم شقير، تاريخ السودان، ص ٦٨٧.

2 نفس المصدر، ص ٦٨٧. محمد بهاء الدين العمري، الحركة المهدية وانعكاساتها على العلاقات المصرية السودانية، ص ٥٨.

جواباً كف عن المخاطبات خيب الله سعيه. فالآن بما أنه حضر إلى جهتكم، وابتدأكم بالمحررات، فأعلم أن قصده إدخال الغفلة عليكم. والرسل الذين يأتون منه بالمكاتبات إنما هم طلائع يكشفون أخباركم، ويعرفونه بما أنتم عليه. فلا يجد عدو الله فيكم مدخلاً ولا غفلة بمحرراته الفاسدة، فإنه قد علم بهزمكم لعساكره مراراً عديدة، ودخولكم أرض الريف على رغم أنفه ولحقه من ذلك الفزع الشديد، فأراد أن يوقع في قلوبكم أقاويله الكاذبة، ومعتقداته الفاسدة، فلا تقبلوا له قولاً، ولا يبلغه من جهتكم أدنى وهن أو ضعف ...)[1].

كان رد النجومي لهم رد القائد الذي لا يعرف التخاذل، ولا يقبل بالهزيمة وإن لم يتحقق له النصر، فهم تواقون للشهادة في سبيل الله، ليدخلوا جنته التي وعد الله بها الشهداء في سبيله.

ومما ذكر آنذاك أن عبدالرحمن النجومي قد عقد مجلساً مع قواده للتشاور والإعداد للأمر عدته، وقد نصحه البعض بالانسحاب حتى يصلهم المدد من الخليفة عبدالله، ولكنه رفض ذلك. وأنه قد خرج مجاهداً فإما النصر أو الشهادة، وقد هز سيفه ورفعه مكبراً، مما أشعل روح الحماس في بقية الجيش، وتوجهوا سائرين إلى مصر[2].

أما جيش العدو بقيادة ود هاوس فكان لا يريد الدخول في معركة ثانية مع الأنصار قبل أن يطمئن تماماً لقواته وكيف استعدت لتنازل جيشاً تعداده ٢٨٢١ من المقاتلين ولكن الذي ينظر بعين فاحصة لهذا العدد مع قلته يرى المعاناة الواضحة عليه. فقد كان يقاسي من الجوع، والعطش، والأمراض وقلة السلاح. وقد اجتمع لود هاوس ٣٦٨٠ من الجنود المصريين، والبريطانيين، والسودانيين السود الذين لا ينقصهم شيء من الطعام، والماء، والراحة، وبحوزتهم ثمانية مدافع كبيرة، زيادة على ما كان عندهم من بنادق وأسلحة أخرى[3]. فأي مقارنة يمكن أن نعقدها بين هذين الجيشين.

---

1 نعوم شقير: تاريخ السودان، ص ٧٨٦- ٧٨٧.

2 ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث، ص ١٩٦.

3 نفس المرجع، ص ١٩٦.

وصل إلى عبدالرحمن النجومي خطاب من الزاكي طمل يزف لهم البشرى بأخبار انتصارهم على الأحباش، مما شجع الأنصار على التحرك وزادهم حماساً على الرغم من أنهم كانوا يأكلون ثمار النخيل المرة، ودقيق نوى البلح، والحيوانات التي أعدت لترحيلهم. وكانوا يصبرون على ذلك، ويحدوهم الأمل الأكبر وهو دخول مصر، حيث يستقبلهم أهلها بالبشر والترحاب، ولكن خاب ظنهم في ذلك. وقرر النجومي أن يسير عبر الصحراء، بعيداً عن النيل، خوفاً من السفن الحربية التي تتبع للأعداء وكان يأمل أن يجد العون من القرى الصديقة[1].

وفي ١١ من ذي القعدة ١٣٠٦هـ/ ١٠ يوليو ١٨٨٩م وصلوا إلى منطقة بلاجة. فكتب النجومي إلى الخليفة عبدالله، وإلى يونس الدكيم. يصف لهم حال جيشه بعد أن هرب معظم الجهادية وهذا بلا شك لضيق الحال، وانضموا إلى جيش الأعداء خوفاً من الهلاك بسبب النقص الحاد في الغذاء والماء[2].

الوقائع على الحدود قبل توشكي:-

من الوقائع التي وقعت في المنطقة قبل توشكي واقعة سرس في ٩ شعبان ١٣٠٤هـ/ ٢٨ أبريل سنة ١٨٨٧م بين قومندان حلفا تشرمسيد باشا والنور الكندي قائد قوات الأنصار ومعه من رجاله نحو مائتين. لم ينج منهم أحد، أما خسارة الأعداء فبلغت ٢١ قتيلاً، و٣٠ جريحاً[3]. ولكن استطاع قائد الأنصار عبدالحليم مساعد أن يسترجع منطقة سرس ١٩ شوال ١٣٠٤هـ/١٨ يونيو ١٨٨٧م. كما أن أنصار أبي حمد بقيادة الحسن محمد خليفة هجموا على نقطة البوليس المصري بمنطقة الكلابشه مما أدى إلى مقتل بعض رجال البوليس وتم اختطاف الملازم بالحامية محمد قني، وأرسله إلى أم درمان، فسر به الخليفة أيما سرور، وأخرجه إلى ساحة العرضة ليرى جيوش الخليفة التي أخرجت لعرضها أمامه. ثم أرسل إلى القلابات ليرى جيوش حمدان أبو عنجة، وأعاده إلى أم درمان[4].

1 P.M.Holt.The Mahdist state in the Sudan. P.160. Oxford, 1958.

2 سيد فؤاد: مصر والسودان، ص ٣٢٩.

3 نعوم شقير: تاريخ السودان، ص ٧٧٢- ٧٧٣.

4 اللورد كرومر: بريطانيا في السودان، تعريب عبدالعزيز أحمد عرابي، ص ٢١٧.

ثم غزا الأنصار بمنطقة سرس أرمنه في ٣٠ ربيع أول ١٣٠٥هـ/ أبريل ١٨٨٨م. كما هجمت سرية منهم على منطقة التوفيقية وهي مدينة استحكام حلفا فأنتهبتها وعادت إلى سرس غانمة، وقيل أن رؤية أهالي المنطقة لأنصار المهدي بثت فيهم الرعب والذعر، فاتجهوا إلى النيل ليعبروا بالمراكب مما أدى إلى غرق ١٣٧ شخصاً. وفي معركة خور موسى قدم الأنصار أكثر من ٨٥ شهيداً وكثيراً من الجرحى. ثم كانت غزوة دبيرة والتي خسرها الأنصار أيضاً[١].

وهكذا أستطاع الأنصار أن يشنوا الغارات المكثفة على الحدود، مما بث في أهلها الرعب والخوف وكان هذا كله قبل وصول حملة عبدالرحمن النجومي ولكنهم فقدوا الكثير من رجالهم[٢]. ولم يبق من المدفعية إلا ثلاثة من ٣٥ كانوا في هذا السلاح[٣]. وهرب حتى حامل ركوة النجومي[٤]، ثم تبودلت الرسائل بين النجومي وجراهام دون الوصول إلى نتيجة[٥].

معركة توشكي:-

في فجر ذي الحجة ١٣٠٦هـ/ ١٢ أغسطس ١٨٨٩م. خرج السردار ببعض فرسانه إلى توشكي، وكشف معسكر النجومي تماماً ووجده يصلي مع جيشه. واستنتج أنه لا بد من مرور جيشه في سهل توشكي فأراد أن يمنعه من ذلك. وفي فجر السبت ٦ ذي الحجة ١٣٠٦هـ/٣ أغسطس ١٨٨٩م دخل النجومي بجيشه سهل توشكي كما توقع العدو، لتدور بين الفريقين أشرس المعارك ويتعرض جيش النجومي لأقسى تجربة وذلك يرجع إلى الفارق الكبير في الإعداد للجيشين، والصعوبات التي واجهها جيش النجومي ولو لا صبر الرجال وعزيمة الأبطال لرجع هذا الجيش أو أستسلم بعد وصول خطاب غرانفيل لهم. واستمرت المعركة عدة ساعات أستطاع فيها جيش العدو من تحقيق نصر

1 نعوم شقير: تاريخ السودان، ص ٧٧٤- ٧٧٦. عبدالرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٦٢- ١٦٣.

2 نعوم شقير، مصدر سابق، ص ٧٧٤- ٧٧٦. عبدالرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الأحتلال، ١٦٢- ١٦٣.

3 مكي شبيكة، مختصر تأريخ السودان الحديث، ٩٧- ٩٨، ط٢ ١٩٦٥م.

4 P.M.Holt: Mahelist State in the Sudan. P.160- 160.

5 سيد فؤاد، مصر والسودان، ص ٢٩٣- ٢٩٤.

سريع على قوات النجومي بعد أن أبلى أبطال المهدية أطيب بلاء، ووضحوا للعالم أجمع مدى بسالة وشجاعة الجندي السوداني. وقد أصابت النجومي رصاصة أردته شهيداً لترتوي أرض توشكي بدمائه ودماء أبطال المهدية الذين كانوا معه. وحمل بعض الأنصار الشهيد عبدالرحمن النجومي على جمل فارين به فتقدم الأعداء وتمكنوا من الاستيلاء على معسكر النجومي، وأسروا عدداً كبيراً من النساء والأطفال كما استطاعوا اللحاق بالجمل الذي حمل جثة القائد النجومي. وبعد ذلك أعلن السردار عن وقف القتال وقد انجلت المعركة وكانت خسارة جيش الأعداء ٢٥ قتيلاً، و١٥٠ جريحاً، وقدرت خسارة الأنصار بنحو ١٢٠٠ شهيداً فيهم ٦٢ أميراً أهمهم النجومي وإبنه وعبدالحليم مساعد ونجا من أمرائه عثمان أزرق، وعلي ود سعد، وحسن النجومي، وميرغني سوار الذهب، والشيخ العبيد، كما توفى القائد محمد الخير بدنقلا من أثر الحمى[١]. بل قيل إن الخسائر في جيش النجومي كانت أكبر من ذلك حيث بلغ عدد القتلى ١٥٠٠[٢].

وقد أورد كرومر[٣] حديثاً عن عبدالرحمن النجومي، واصفاً له بأنه البطل الذي أدخره القدر، لتتمثل في شخصيته السمات الحقيقية للمهدية المشربة بحب القتال. فقد كان إيمانه بالمهدية يضارع إيمانه بنفسه، ومما يوضح ذلك رفضه التام لدعوة السير جرانفيل للتسليم، وقال قولته المشهورة: (إننا لا نهاب أحداً ولا نخشى غير الله) وهذه هي الحقيقة التي يؤمن بها ذلك البطل الشجاع النجومي، هذه هي الثقة التي حملها معه إلى قبره. فلذلك كان الجميع يقدرونه ويحترمونه ومما يدل على ذلك التفافهم حول جثمانه الطاهر المسجى وهم في غاية الألم والحزن. فهو من أبناء الجعليين الذي لا يجود الزمان بمثلهم كثيراً، فقد فاق في إخلاصه ومقدراته أبناء البقارة أنفسهم، مما جعلهم يهابونه ويجعلون له ألف حساب.

1 نعوم شقير، تاريخ السودان، ص ٧٩٠- ٧٩١.

2 عبدالرحمن الرافعي، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، ص ١٦٤.

3 اللورد كرومر: بريطانيا في السودان، ص٢١٩.

فذلك هو عبدالرحمن النجومي الذي جمع العظمة من أطرافها فكان عظيم الفكر والخلق فهو من نوابغ القواد العسكريين، عندما تدخل إليه تجده رجلاً عجيباً يقف دائماً إلى جوار خليفة المهدي سيفاً بتاراً على استعداد دائم أن يضرب الأعداء، عاصفاً قوياً خلاباً.

كانت عقيدة المهدية هي المنفذ الطبيعي لإظهار قوته وبلائه، فكان إقدامه مثلاً حياً لخالد بن الوليد في حروب النبي صلى الله عليه وسلم. فهو ذلك الداهية العسكري الذي رسم الخطط التي حطمت ودمرت الجنرال هكس في شيكان. وهو ذلك الرجل الذي أحكم الحصار على الخرطوم ثم تسلل برجاله خلسة حول الأوحال المتراكمة خلف الحواجز المنهارة فكان سقوط الخرطوم عاصمة الأتراك المصريين، وكانت نهاية غردون الضابط البريطاني[1].

نتائج معركة توشكي:

تعتبر هذه المعركة بداية النهاية لدولة المهدية، حيث انفتح بعدها الطريق إلى هذه الدولة من جهة الشمال. وقد كان ذلك وما نشاهده أن استراتيجية القوات البريطانية الموجودة في مصر مع القوات المعادية، قد انتقلت إلى الهجوم على أراضي المهدية بدلاً عن الدفاع. فكانت حملة كتشنر التي توغلت في أراض دولة المهدية في سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م، لتتمكن من القضاء على هذه الدولة، وعلى قائدها الخليفة عبدالله في معركة أم دبيكرات ١٢ رجب ١٣١٧هـ/ ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م[2].

كان الخليفة قد أرسل إلى عثمان دقنه يأمره بالاستعداد أو الهجوم على مصر عن طريق الجبهة الشرقية، حتى يكون هذا الجيش سنداً لعبدالرحمن النجومي الذي يهاجمها من النيل، وحتى يصعب على القوات المتمركزة في مصر من التمكن من مقاومة المهاجمين، ولذلك عندما كان عثمان دقنه بالقضارف وكسلا، فقد أخذ منهما أعداداً كبيرة من المجاهدين وأرسلهم أمامه في مجموعات متعددة إلى طوكر،

1 اللورد كرومر: بريطانيا في السودان، ص ٢١٩- ٢٢٠.

2 مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٤١٧- ٤٥٤.

ولكنه عندما وصلها جاءته أخبار هزيمة جيش النجومي واستشهاده في توشكي وهذا يوضح تماماً أن الخليفة استعان بالجبهة الشرقية في الهجوم على مصر بحكم موقعها[1].

وهذه نتيجة مهمة من نتائج معركة توشكي حيث أن الخليفة أتجه إلى تجديد الجهاد في الشرق للهجوم على مصر، وذلك بعد الهزيمة في توشكي، للدفاع عن دولة المهدية[2].

ومن نتائج معركة توشكي كذلك أنها أظهرت أن الأنصار يؤمنون إيماناً تاماً بهذه الدعوة، ولولا ذلك لما جاءت جموعهم في هذه الظروف القاسية وهدفهم هو الاستيلاء على مصر. كما أن هذه المعركة من جانب آخر أظهرت أن هذه الدولة تعاني من التفكك والانقسامات، وأن هذه القوات لو توفرت لها مقومات القتال من الأسلحة، والمعدات، والتنظيم، وأساليب التكتيك المختلفة، لعانى الأعداء كثيراً. وتغيرت استراتيجيتهم التي وضعوها لمقاومة هذه القوات. كما أنني أعتقد أن التوقيت نفسه لم يكن مناسباً لغزو مصر، لأن البلاد آنذاك كانت تعاني من الصراعات الداخلية، ومن الفتن والثورات هذا بالإضافة إلى المجاعة الطاحنة التي عمت البلاد. فكان ينبغي على الخليفة عبدالله تأخير هذه الحملة وذلك ريثما تنتهي هذه الصراعات، وتخف حدة المجاعة، حتى يكون الاستعداد متناسباً مع مكانة مصر وإمكانياتها، والتي كما أشرنا مدعومة من العدو المشترك بريطانيا.

ومن نتائج هذه المعركة. أيضاً أن الاتهام الذي ألحقه البعض بالخليفة عبدالله، أنه أرسل النجومي إلى معركة يعلم تماماً أنها خاسرة، وانه أراد القضاء على قوة الأشراف، هذا الاعتقاد الذي لا يزال سائداً عند الكثيرين: فهذا اعتقاد خاطئ وما نستطيع أن نؤكده الآن أن الخليفة لم يهدف لذلك، ولعل هذا الاتهام أراد به الأعداء إشانة سمعة الخليفة عبدالله بين مواطنيه، وكما أشرنا قبل ذلك أن الخليفة كانت علاقته بالنجومي على أحسن ما يكون، بل وأن الخليفة كان يعتقد أن هذه القوات الموجودة في حدود مصر، مثلها وحملة الإنقاذ يمكن بسهولة دحرها والقضاء عليها، كما أنه كان مخطئاً في تقديره أن المصريين سيرحبون بجيوش المهدية بناء على روايات

---

1 نعوم شقير، تاريخ السودان، ص ٧٥٦- ٧٥٧.

2 نفس المصدر، ص ٧٥٦- ٧٥٧.

غير صحيحة، لأنه وفي خلال الثلاثة وعشرين يوماً التي قضاها الأنصار بمصر لم يأت إليهم أحد من أجل الدين أو التجارة[1].

وقد تعاون المصريون مع الأعداء بإخفائهم الغذاء من الأنصار، وحملهم السلاح مع الأعداء لقتال المسلمين. وقد قال النجومي بأن المصريين لا يعتمد عليهم، وأنهم لم يقبلوا المهدية، وأن الرسائل التي وصلت منهم عن تصديقهم وإيمانهم بالمهدية غير صحيحة[2].

وكذلك من نتائج هذه المعركة. فقد أصدر السردار جرانفيل منشوراً بتاريخ ١٣٠٧هـ/ ١٠ يوليو ١٨٨٩م إلى قاطني الحدود، يحذرهم من ممالأتهم للدراويش، وأن من يفعل ذلك فسوف يكون عقابه القتل، ومن بقى على ولائه للوالي العثماني، وخديوي مصر، وفقد شيئاً فالحكومة هي المسئولة عن تعويضه[3].

كما كتب الخليفة عبدالله إلى أهل دنقلا، والمقاتلين الذين نجوا من واقعة توشكي، يصبرهم على ما أصابهم قائلاً: (... وبما انه لا يخفي عليكم أيها الأصحاب، أن أمرنا هذا ديني والقصد منه إحياء السنة النبوية، وإتباع الأثر فالابتلاء الحسن لا بد أن يحصل للمؤمنين، لكي يتميز بذلك الخبيث من الطيب. طبق ما وقع للصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم قد كابدوا في الله كل شدة، وحصل عليهم من البلاء الحسن ما لا يطاق، فصبروا صبر الكرام، وأوفوا بعهد الملك العلام، وجميع ما وعدهم الله به في قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)[4] وأنتم يا أصحاب المهدي (عم) لا شك أنكم على أثرهم ...)[5].

ولا شك أن حملة النجومي لم تكن هي آخر محاولاتهم لغزو مصر، فقد خاطب الخليفة الأنصار بالجبهة الشمالية ويونس الدكيم كذلك يحثهم على مواصلة الجهاد، ويطالبهم بعدم الاستسلام وألا يهنوا ويضعفوا وأن يقاتلوا عدوهم، وأن يأخذوا العمل الصالح من الصحابة الأجلاء (رضوان الله عليهم). ويخبرهم أن كل ما حدث ما هو إلا

---

1 ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان، ص ١٩٤- ١٩٥.

P.M.Holt.THE MAHELIST State in the Sudan, P.162- 166. 2

3 نعوم شقير، تاريخ السودان، ص ٧٩٥- ٧٩٦.

4 سورة البقرة الآية (١٥٥).

5 نعوم شقير، مصدر سابق، ص ٧٩٦.

اختبار وامتحان لهم ليميز منهم الطيب من الخبيث، فلذلك كانت حملة الواحات، حتى يسلك الأنصار طريقاً آخر غير طريق النيل. وهذا مما يوضح أن الخليفة كان صادقاً وجاداً في غزو مصر فلم يهن ولم يضعف، رغم هزيمة عبدالرحمن النجومي[1].

كما أن الخليفة أتجه إلى ترضية أبناء المنطقة حتى يواصلوا جهادهم ضد الأعداء ثم أتجه إلى تجديد الجهاد في شرق السودان حتى يحمي الشمال وذلك بعد الهجرة المعاكسة التي عمت المنطقة. فقد قيل إنه وبعد خمسة أسابيع من واقعة توشكي هاجر أكثر من ٢٦٠٠ من أبناء المحس والسكوت والمناصير إلى الجيش الغازي يطلبون منه أن يحميهم وأن يمدهم بالمؤن والغذاءات كما أن كثيراً من المواطنين أرسلوا بعرائضهم إلى السلطات البريطانية والمصرية، وأبدوا فيها طاعتهم وخضوعهم التام لخديوي مصر، وأنهم سوف يعملون وبكل ما يملكون من أجل إعادة سلطته[2]، وأقول إن حدث ذلك يكون من قلة لا يمثلون الشعب السوداني آنذاك، وربما كان ذلك بسبب الضغوط التي وجهت لهم من قبل الجيش الغازي، أو نتيجة للضغوط المعيشية، بعد المجاعة الطاحنة التي حلت بالبلاد، وكما هو معروف أن الإقليم الشمالي والشرقي يعتبران من أكثر الأقاليم تأثراً بهذه المجاعة لقلة الأراضي الزراعية.

ومن النتائج كذلك فهذا النصر الكبير الذي حققه الأعداء في توشكي، أعطى الجيش المصري وأوربا الثقة الكبيرة في التوجه إلى هذه الدولة والقضاء عليها، فلذلك أنصب جلّ تفكيرهم حول تحطيم هذه الدولة، بعد أن أدركوا أن هذه الدولة تعاني من إنعدام التنظيم والترتيب فلذلك يسهل غزوها واحتلالها وهذا ما حدث.[3]

وبعد توشكي استولت القوات المصرية البريطانية على منطقة سرس وكان ذلك في ١٣٠٧هـ/١١ أغسطس سنة ١٨٨٩م. كما أعيد ترميم خط السكة حديد بينها وحلفا وبقي الأنصار على بعد مائة ميل من سرس إلى أن تم إبعادهم من المنطقة في سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م فاتجهوا إلى سواردة.[4]

---

1 د. عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن، توشكي، ص ١٨٣- ١٨٥.

2 ب.م. هولت: دولة المهدية في السودان في عهد الخليفة، ص ١٨٣.

3 سيد فؤاد ، مصر والسودان، ص ٢٩٥.

4 نعوم شقير، تاريخ السودان ، ص ٧٩٣.

فهذه هي بعض الافتراضات التي بنى عليها بعض المؤرخين حججهم وأفكارهم، وأتمنى أن أكون قد وفقت لدحض هذه الافتراءات التي لا تمت إلى الواقع بصلة. وأن أكون قد ساهمت في تصحيح بعض الآراء التي لحقت بهذه الحقبة من تأريخ السودان والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

❖ إبراهيم فوزي باشا.

٢. السودان بين يدي غردون باشا وكتشنر (د : ت).

❖ سيد فؤاد.

٣. مصر والسودان (د : ت).

❖ السيد علي المهدي.

٤. الأحوال المروية في تأريخ المهدية ١٩٦٥م.

❖ ضرار صالح ضرار.

٥. تأريخ السودان الحديث، أغسطس ١٩٦٤م.

❖ عبدالرحمن الرافعي.

٦. مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣ ، ١٩٣٣م.

❖ عبدالعزيز حسين الصاوي ، محمد علي جادين.

٧. الثورة المهدية (مشروع رؤية جديدة) شركة الفارابي، ط١، ١٤٠٧هـ.

❖ عبدالودود إبراهيم شلبي.

٨. الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧م.

❖ عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن (توشكي).

٩. توشكي (دراسة تاريخية لحملة عبدالرحمن النجومي على مصر) جامعة الخرطوم للطباعة والنشر (د : ت).

❖ اللورد كرومر.

١٠. بريطانيا في السودان: تعريب عبدالعزيز أحمد عرابي، (د :ت).

❖ محمد إبراهيم أبو سليم (دكتور).

١١. منشورات الإمام المهدي، إدارة المخطوطات المركزية، وزارة الداخلية الخرطوم، ط١٣، ١٩٦٤م.
❖ محمد أبو القاسم حاج حمد.
١٢. السودان المأزق التاريخي وأفاق المستقبل ، دار ابن حزم، بيروت، ط٢ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
❖ محمد بهاء الدين القمري.
١٣. الحركة المهدية وانعكاساتها على العلاقات المصرية السودانية، مكتبة أوزريس، القاهرة، ١٩٦٤م.
❖ محمد سعيد القدال.
١٤. المهدية والحبشة، دار النشر، جامعة الخرطوم، نوفمبر ١٩٧٢م.
❖ مكي شبيكة.
١٥. السودان عبر القرون، دار الثقافة ، بيروت، أغسطس ١٩٦٤م.
١٦. تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٧. مختصر تاريخ السودان الحديث، ط٢، ١٩٦٥م.
❖ نعوم شقير.
١٨. تاريخ السودان ... تحقيق الدكتور/محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت ١٩٨١م.